تمهيد

إذا كانت مشكلة اللغة الشعرية عبر مراحل تطورها تجنح نحو الإدراك التجريبي في سبيل الوصول إلى الحيثيات المقننة، فإن الدراسات الحديثة للغة الشعرية تعقد صلة حميمة بين الأفكار والأشياء، في انحناءاتها الطبيعية، وبذلك تصبح لغة الإبداع - والحال هكذا - محاطة بمحيط الافتراض، لا بمحيط البرهان، وهي بهذا المعنى (استعارة وتداع) في وقت كان فيه الإبداع منذ الأزل قائماً على التصوير المجازي، غير أن البلاغة جعلت منه «تصديقاً» يصوغ أسلوبه وفق الحجج والبراهين، فتحول الفكر اللغوي من الانحناء الطبيعي إلى الاتساق بالأدلة، تبعاً لما كان يقتضيه سياق الكلام وفق منظور القياس المنطقي.

ولئن كانت الدراسات الحديثة مجبرة على تسويغ اللغة وردها إلى اعتبارها الأول: (التصوير بالمجاز واللغة المجازية)، فإن الغرض من ذلك هو إعطاء فسحة لمتعة العقل في تذوقه الأشكال الفنية.

إن تحول اللغة من طوبولوجية التكوين (النموذجي) إلى المجاز الذي يصنعه الشكل الفني في الاستعارة، يمنحنا القدرة على الدخول في عالم المكاشفة، وهكذا تتجلى الاستعارة في ثوبها الانحرافي (أو العدولي)، بموجب أوجهها المتعددة، ومن هنا يمكننا القول بأن عملية التحول هذه تحيل على خطاب يصبح فيه المخاطب منفلتاً من المرجعية النموذجية التي طالما جعلت النص يتمتع بقاعدة تأسيسية يصعب اختراقها مرتكزة على قانون التطابق / التماثل.

إن توظيف اللغة الشعرية كان – وما يزال - يكشف قدرة الانعكاسات، بدءاً من نزوعها العفوي، إلى توجهها الفني، بغرض إظهار الشيء بما هو جسد للفكرة، في تصويره الفني البليغ من خلال تحويل العالم الواقعي إلى عالم متخيَّل، أي من واقعية الشكل إلى افتراضية التصوير، وهي إشارة مبنية على كسر الإطار النموذجي، والشروع في ملامح المكاشفة والإيمائية.

ومثل هذا التطور لهذه اللغة يركز اهتمامه وبحدة بالغة على المجاز في تطابقه مع العدول من حيث نقل المعنى من مسماه الأصلي إلى مسماه الافتراضي.

في خضم ذلك، هل يمكن للغة الشعرية أن تتحدد في النص بمستوى معين، وبشكل

نهائي وتام؟ أم أن هناك علاقات غير قابلة لأي تحديد؟ وإذا كنا نعتقد مسبقاً أننا لا نسلك الجادة نفسها «للبحث عن معنى الأشياء»،فهل في وسع اللغة وهي تتمظهر بمظهرها الطبيعي أن تكون ممكنة بمقدار تشعب العلاقة الشعرية «للبحث في معنى الأشياء»؟.

إن ما يقع على عاتق اللغة الشعرية ليس إعتاق العلامة الشعرية وحسب، وإنما استعادتها في حركية من عزلة الدال بمستوى حرية المدلول، ونتيجة لذلك يبدو العدول والانحراف «مسافة اختراق» بوصفه الشكل الذي يكف عن أن يكون نموذجاً لشكل آخر، وعوضاً عن ذلك فإن الشعرية اهتمت بكسر النماذج ودحضها، والبحث في ما يفلت من الأنساق ولا ينخرط في النظم.

ولقد حاولت الشعرية تتبع أثر ذلك العدول، انطلاقاً من تجربة تأملية اقتضت النظر في اللغة الشعرية على أنها نمط تعبيري شاذ ومنحرف، يستمد صلابة حضوره من درجة شذوذه وانحرافه، فكانت الحاجة إلى قاعدة تثمن مستويات الانحرافات وأشكالها، وذلك قياساً إلى مدى عدولها عن الاستخدامات اللغوية العادية، إضافة إلى ما تحدثه من اهتزاز في تقبل المتلقي للمنجز القرائي.

إن التطلع إلى شعرية متكاملة موضوعياً ومنهجياً، لا يتم بالتركيز على عوامل دون أخرى، وإنما بالأخذ بكل الممكنات، لأن العمل الأدبي ليس مجرد بنية جاهزة، إنه نتاج الفوضى والعبقرية والتفرد، ولعل ما يشهد لهذه الفرادة، هو اختلاف التأملات النظرية التي يأبى أن يخضع لأي منها.

غير أن ذلك كله لم يفسح المجال إلا لمزيد من الالتباسات فيما يخص ظاهرة العدول أو الانحراف التي سيقت إلى حتفها المؤجل، ولم ينتج ذلك عن فشل في الرؤى، وقصور في الإجراءات أو ضعف في التأمل، وإنما يعود ذلك إلى:

أولاً: اتساع موضوع هذه الظاهرة (الأدبية)، في مقابل تقوقع منظورها في حيز من الفروقات الثنائية «شعر/ نثر، حقيقية / مجاز، قاعدة / انحراف».

ثانياً: تصميمها على الشعر بوصفه وظيفة لغوية تنجم عن استعمالات مغايرة أو منافية لأنماط الاستعمالات الأخرى.

ثالثاً: فصل اللغة عن كيانها (الشعر)، واعتباره جزءاً منها، بالتركيز على لعبة المجازات، وفهم الشعر على أنه خروج وانتهاك أو ابتعاد عن نموذج اللغة الأم.

ولما كانت الدراسات الحديثة تقف على عتبة السؤال، فإن رغبتنا لم تصمد أمام هذا المنعطف، مؤجلة كل نية في الجواب، لتنمو فكرة الدراسة ضمن أفق تساؤلي أساسه التأمل الافتراضي، داعية إلى منظور معرفي لا يمكن من اكتشاف حقائق، وإنما يطمح إلى إضافة تجارب ترتكز على جوانب استقرائية وحدسية. وبذلك فإن هذا البحث لا يرحب بأية قناعة تؤكد سبلاً منهجية ثابتة المعالم واضحة الملامح، على اعتبار أن اكتمال نظرية في «الشعرية» أمر لم يتسنّ إنجازه بعد، ومن ثمة فهو يلح على مزيد من التساؤلات التي لم ترض أبداً الانتهاء إلى صياغة إجابتها، وذلك بحكم التطلع الحداثي الذي يرفض كل تقنين!!.

إن الشعرية هي بحث في ما يكون به الأدب «أدبياً»،وفي تلك الخصائص الممكنة لكل إبداع متميز وخلاق، والانزياح هو ممكن اللغة في لحظة المكاشفة الشعرية، ولذلك فإن لهذا الممكن أكثر من طريقة للابتكار والخلق.

فكيف يتسرب هذا الممكن وينزاح ويطغى؟ وهل يدخل في عداء مع العادي كما تزعم معظم الشعريات؟ أم أنه يركن إلى عاديه الخاص مشكلاً منه معجمه ولغته وتغيرات دلالاته، بكل ذلك العمق الجمالي اللا متوقع؟.

لقد أعطيت للشاعر «رخصة» التجوز والاتساع، بحسب ما تقتضيه «الضرورة» الشعرية، فهل يكفي ذلك لإنجاز مصطلح العدول بالشكل الذي يجعل منه خاصية شعرية مطلقة؟ وما الذي يكفل له تلك الشعرية؟ أهي الوظيفة الجمالية للدال، أم الطاقة الإيحائية للمدلول؟، ثم كيف نتكلم عن الشعرية ونحيطهم علماً؟ أو بعبارة أخرى، كيف ننتقل من الحديث «عنها» إلى الحديث «فيها»؟ محاولين خرق الفارق بين العالم والكلمات، في شكل العبارة المشهورة «في اللغة سلطة وخضوع».

مثل هذه الأسئلة – وغيرها – هو ما يشكل هاجس النقد الحديث، ولعل من حسن حظ البشرية أن اللغة لا تعبر تماماً بصورة مطلقة، وربما كان ذلك سبباً في حرية العدول الذي اعتبر انتهاكاً لقوانين اللغة وخروجاً عليها، سعياً منه لاستعادة حرية داله الشعري.

فهل تبرز مظاهر العدول الجمالي في التراث البلاغي بعض مبادئ وإرهاصات تلك الحرية؟ وكيف ينمو مصطلح العدول ضمن مسار تأملي محدود، يصر وبشدة على تكريس قوانين الحقيقة (الأصل)، مقابل المجاز (الفرع).

وفيما يتجلى الاختلاف؟ في خطاب القارئ أم المقروء؟.

إن الألفة التقبلية التي تم تجاوزها في «شعرية العمى» لم تنجز إلاّ في مستوى ضيق ومحدود من الممارسة، طغت عليها مؤسسات الذوق المستبد بسلطة «عمود الشعر».

كما أنه كان من الممكن أن تنمو علاقة جديدة بين القارئ والنص في ضوء شعرية الالتفات لو قدر لها أن تحظى بالتأمل الإجرائي العميق.

وقد يكون من أهم الشعريات تلك المتعلقة بشعرية النظم بوصفها الرؤية الأكثر تطلعاً وخصوبة، من حيث كونها تضمنت حداثة مبكرة لنظرية «المعنى / معنى المعنى» وما استوعبته من حضور الدال النحوي في الخلق والإبداع.

إن في ميل التفكير الجديد نحو رفض الاطلاقية ما يجعله يتميز بكونه لا يريد أن يصبح البديل، بوصفه قابلاً للهدم، وإعادة التشكيل، دون أن يفرض قوانينه، لأنه يرى في ذلك السطو نوعاً من التقليدية، ولقد كان في مقدور الشعرية مواكبة ذلك التفكير حتى عندما لم تفلح في إنجاز نظريتها، فكيف تستعيد اللغة الشعرية العلاقة بين الكلمات والأشياء، منظوراً إليها بذلك الحدس الرؤيوي الذي يثمن حضور الفن في الحياة؟.

إن البحث في اللغة الشعرية يعد مسلكاً تحليلياً معقداً ما يزال ينتظر المزيد من التساؤلات، وفيما يخص ظاهرة العدول فإن الأمر يتعلق من ناحية بالخصائص المميزة لطرائق التشكيل الأدبي، ومن ناحية أخرى بترجمة تلك الأشكال في مستوى تقبلها وتلقيها.

ولكن كيف ينشأ التفكير في لغة شعرية شاذة ومنحرفة؟ ومما تستمد قدرتها على هذا الانتهاك؟ وبالنظر إلى أية قاعدة أو قياس يتم تثمين درجة وقوة ذلك الانتهاك؟.

أسئلة لا حصر لها لاشك في أن معظمها لم يطرح بعد، وأمام إثارة الشعرية في مستويات أخرى بكل ذلك التنوع البنائي الأسلوبي والتقبلي، هل كان في مقدور هذا التنوع مقاربة «الشعري» بنفس الطموح الذي انطلق منه؟ أم أن الالتباس والغموض كانا – غالباً – الممكن

الوحيد الذي بوسعه أن يمنحنا برهة التأمل لاستكناه بعض التجارب الشعرية بما استوحيناه من أدوات وإجراءات تشترك في إبداع قراءة متفردة، لا تنشغل بملاحقة الدال وإنما تكتفي باستقراء انحرافاته فيما هو يفجر انحرافه الخاص، ولأن الوجود لا يمكن استعادته إلاّ عن طـريق المتخيل، فقد اقترحت الدراسة من خلال ممارساتها التطبيقية بنية المتخيل الشعري من حيث (التعارض في الانتشار) تعارض اللغة مع الواقع وانتشار الشاعر في اللغة، على اعتبار أن كل تشكيل فني يظل قابلاً لعملية التلقي التي تقود النص إلى دائرة اكتماله، مما يفسح المجال لمزيد من التعدد – الاختلاف – بعكس الممارسات التقليدية التي أهملت النص بوصفه تجربة للمتلقي، واكتفت بكونه موضوعاً فحسب.

وفي هذا الإطار تكون مقاربة الدال الشعري مستوياته الدلالية والتركيبية والإيقاعية، مستندة في اشمل تأويلاتها على أفق تقبل القارئ ومنسجمة في الوقت ذاته مع معطيات النص جاعلة من لحظة الابتكار والتلقي مساحة لإنتاجية مغايرة، من المعنى الوظيفي إلى ما تنم عنه تجليات المعنى، بحيث يصبح النص بمثابة سلسلة من التقديرات التساؤلية، وفي خضم ذلك تكون علاقتنا بالنص، استحضاراً متداعياً تكتنفه هالة من الممكنات، تتساوق فيها شعرية الكتابة مع شعرية القراءة وينتقل فيها العدول من قيمة نصية إلى صدمة تقبلية.

لقد تم تصور إجابة غير نمطية، تنتقل من القيمة القصدية إلى موضع التشظي، ومن التشابه إلى الاختلاف، في ظل شعرية غير مطابقة تعقد العزم على إثارة مزيد من الأسئلة وفتح آفاق جديدة دون أن تبشر بأية نبوة أو تنتهي في جواب.

وهذا ما يثير شجون كل باحث يتطلع إلى الكشف عن الوجود!!.